الفصل الحادي عشر

القضايا العربية في السينما التسجيلية

القضايا العربية في السينمـــا التســجيلية

أولاً : السينما التسجيلية والصراع العربي الإسرائيلي (١) :

تحتل قضية الصراع العربي – الإسرائيلي مركز الصدارة في اهتمامات أصحاب السينما التسجيلية العربية، حيث بلغ عدد الأفلام المشاركة عنها ١٣ فيلماً فى مسابقة مهرجان القاهرة التاسع للإذاعة والتلفزيون .

ولعل المكانة التي تحتلها هذه القضية في السينما التسجيلية ترجع إلي تميز قدرة الصورة التسجيلية الحية (غير المصطنعة) في الحفاظ على حضور القضية في نفوس أصحابها العرب من ناحية، وإحياء وجودها خارجهم من ناحية أخرى، إضافة إلي قدرتها الخاصة على التعبير المباشر (وغير المباشر) عن وجهة النظر العربية، وتوضيح ما التبس منها، وذلك فضلاً عن قيمتها المبدئية التي تتمثل في أهميتها التوثيقية.

ومن الممكن اعتبار أن كل الأفلام المشاركة – تقريباً – قامت بالوظيفة التوثيقية على نحو أو آخر. غير أن هذه المهمة وحدها لا تكفي. فالصورة تبدو أحياناً مكررة أو متشابهة أو تنقصها بعض الشروط الفنية (جمالية أو تقنية)، وهو ما يضعف تأثيرها وقد يفقدها قيمتها، ومن الملاحظ أن عدداً لا بأس به من أفلام هذه الدورة تمثل إضافة حقيقية إلي رصيد السينما التسجيلية، تؤكد دورها في هذه القضية المصيرية.

ثانياً : السينما التسجيلية والمأساة العراقية (٢) :

كانت السينما التسجيلية في العراق سبيلا لكثير من المبدعين، للتعبير عن الواقع والأحلام خصوصاً في أوقات الحصار والأزمة، وصعوبة الإنتاج الروائي السينمائي إما لأسباب مادية أو لأسباب سياسية واجتماعية.

و قبل الاحتلال الأمريكي للعراق تميز إنتاج القطاع الاشتراكي بسيادة الفيلم الوثائقي الذي يعكس الواقع الجديد ويركز أكثر على منجزاته. وبفعل جدارة هذا الفيلم استطاع

أن يحصل على العديد من الجوائز الدولية في المهرجانات التي شارك فيها مثل: موسكو – وطاشقند – وقرطاج – ويصل معدل ما يتم إنتاجه سنويًّا من الفيلم الوثائقي إلي أربعين فيلمًا تتناول موضوعات عديدة – علمية وتربوية وتأهيلية وثقافية.

إن واحدًا من ملامح الفيلم التسجيلي العراقي هو رصده للكثير من المتغيرات التي شهدتها الحياة العراقية، وبرزت هوية مميزة لهذا الفيلم منحته واقعية في الاتجاه في الأغلب الأعم. وقد حققت في ذلك حوارًا طيبًا وجادًا في اتجاهات رصينة وراسخة في مسار السينما التسجيلية في العالم؛ وتأكيدًا لذلك برزت الشخصية العراقية والبيئة العراقية والحوار الأزلي بينهما؛ لتتحقق محصلة فترة في أكثر من ١٨. شريطًا امتد في حيز زماني يزيد عن ثلاثين عامًا.

والشيء اللافت للنظر أن القطاع الخاص لم يَخُض مضمار إنتاج الأفلام التسجيلية مطلقًا، وإنما أخذ على عاتق القطاع الاشتراكي فقط إذن إن الأفلام الوثائقية كانت تتجسم والطبيعية السياسية للقطر في كافة المجالات إلا ما ندر.

وحينما تأسست مصلحة السينما والمسرح سنة ١٩٦. وهي أول مؤسسة رسمية تعنى بالسينما بعد أن ظل إسهام الدولة في الإنتاج السينمائي غائبًا خلال الأعوام السابقة. وحتى حينما ابتدأت مصلحة السينما وتحويلها إلي مؤسسة السينما والمسرح، ولها نظامها الخاص، كان الفيلم التسجيلي ينتج بالإضافة إلي الفيلم الروائي..

وقد شهدت السينما العراقية بعد عام ١٩٦٨ إنتاج أفلام كبيرة وضخمة تنوعت في مضامينها الوطنية والعربية والإنسانية، مثل: "المسألة الكبرى"، و"القادسية"، و"الأسوار"، و"الحدود الملتهبة،" وغيرها، وانطلقت معها السينما إلي فضاءات عربية وعالمية لتمثل العراق في احتفاليات دولية، وتحصد الكثير من الجوائز المهمة..

وفي إطار التعاون العربي المشترك نجد أن السينما العراقية بدأت بخطوتها في هذا الاتجاه منذ لحظات ولادتها الأولى، فأنتجت أفلاما، مثل: "ابن الشرق"، و"القاهرة بغداد" كمرحلة أولى، و"التجربة"، و"القادسية"، و"مطاوع وبهية"، و"بابل حبيبتي" كمرحلة لاحقة وواعية.

وبعض هذه الأفلام جمعت فنانين من دول عربية عديدة؛ وذلك للتفاعل الإنساني والفني وتلاقح الأفكار والتجارب.

وكان الفيلم التسجيلي بمثابة المختبر لقياس إمكانيات المخرجين وخاصة الشباب، فإذا برز فيلم وثائقي ونال جوائز دولية فإن المخرج مهما كان كبيرًا أو صغيرًا بالسن له الأولوية في إخراج الأفلام الروائية، فكما حصل مع المخرجة خيرية المنصور حينما حصد فيلمها "ابنة الرافدين" الجائزة الثانية في مهرجان طاشقند، تغير عنوانها إلي المخرجة .

وأخرجت فيلمًا روائيًّا طويلا، وكذلك الحال مع الشاب "حسين أمين" حينما نجح فيلمه أخرج فيلمًا روائيًّا، وهكذا فالفيلم الوثائقي يعتبر مختبرًا لطاقات الشباب وإبداعاتهم.

أما الأفلام الوثائقية التي عمل فيها كثير من المخرجين العراقيين والعرب فيتباين جودتها .

وبعد فرض الحصار الدولى على العراق نشطت السينما التسجيلية وقدمت موضوعات ونالت جوائز عديدة وتغير أسلوبها ونمطها واتسمت بالجرأة في طرح الموضوعات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

والآن وبعد أن نضب الفيلم الخام بقيت السينما تشكو من الحصار، من القوى الإمبريالية التي منعت الفيلم الخام عن السينما العراقية مخافة أن تطرح قضاياها عبر المهرجانات الدولية وإدانتها لما يتعرض له الشعب العراقي من ظلم ومن تجويع غذائي وفكري .

وفي ظل غياب السينما الروائية لجأ السينمائيون العراقيون إلي تسجيل وتوثيق "الحالة العراقية" بكاميرات فيديو بعيدًا عن التقنيات وقوانين الإنتاج وحسابات الربح أو الخسارة وغير ذلك، فقدموا عددًا من الأفلام القصيرة في أزمانها والفنية في مضامينها..

وهي الأفلام التي تناولت تفاصيل المعركة وعمليات إعادة البناء ومعاناة الشعب العراقي وعمليات التخريب والدمار وقتل الأبرياء ومعاناة المرضى والأطفال والشيوخ من نقص الغذاء، وقبل وبعد كل ذلك صلابة وصمود العراقيين ووقوفهم في خندق واحد لإعادة بناء ما دمر.

ومن الأفلام التي أنتجت في هذا الإطار "حضاري جدًا" عام ١٩٩١ وهو عن العدوان من خلال رسوم متحركة، و"عبور أيام المحنة" عام ١٩٩١ عن حياة العراقيين أثناء العدوان، و"وعد السماء"، و"سيد الجسور"، و"الجزاء"... وغيرها.

كما أُنتجت أفلام تليفزيونية بتقنيات سينمائية تناولت موضوع الحرب، منها: "حفر الباطن" للمخرج عبد السلام الأعظمي، و"الأيادي الرحيمة"، و"رأس الرياح"، و"الخلاص" لقحطان عبد الجليل، و"ملجأ العامرية" لعبد الهادي الراوي، و"فجر يوم حزين" لصلاح كرم.

وتضامنًا مع العراق وقضيته والحصار الأمريكي الظالم أنتج العديد من السينمائيين العرب والأجانب أفلامًا تناولت موضوع الحصار، ومن هؤلاء ما قدمه المخرج العالمي يوسف شاهين في أفلامه، وكذلك خالد يوسف، والمخرج اللبناني سعيد كعدو الذي صنع فيلمًا عن الحصار أسماه "تقاسيم من بغداد"، وأفلام أخرى مشتركة مثل "اللوحة الأخيرة" للمخرجة خيرية المنصور والكاتبة الصحفية وفاء عوض، وهذا الفيلم عن قصيدة كتبها الشاعر حميد سعيد حسين عندما قصف الأمريكان دار الفنانة التشكيلية "ليلى العطار"، واغتالوها بصاروخ آثم وهي نائمة.

تقنيات بديلة

وقد دفع غياب الفيلم الخام ببعض السينمائيين في العراق إلي صنع أفلام بديلة، ولكن بتقنيات سينمائية وكاميرات تليفزيونية أطلقوا عليها أفلام "السكرين"، وهذه المحاولات جاءت من قبل عدد من الشركات الإنتاجية للقطاع الخاص استهدفت جذب الجمهور لصالات العرض السينمائي التي خلت تمامًا من الأفلام الحديثة، أي أفلام التسعينيات.

وقد جاء مفهوم أفلام "السكرين" من إمكانية عرض الفيلم التليفزيوني على شاشة السينما، وذلك عن طريق جهاز نقل الصورة من الفيديو إلي الشاشة الذي يسمى فيديو بروجكتور، وفعلاً تم صنع العديد من هذه الأفلام ذات الأهداف التجارية البحتة، ونجحت بعضها تجاريًا بسبب موضوعاتها التي تعتمد على إثارة غرائز الشباب وعواطفهم، لكن الموجة لم تستمر طويلاً وسرعان ما انتهت لضعف موضوعاتها .

وقد استضاف مهرجان الإسكندرية السينمائي في دورته الثامنة عشرة في بانوراما السينما العراقية مجموعة من الأفلام التسجيلية والروائية، أما التسجيلية فقد عرض خمسة أفلام عراقية تمثل نماذج فنية وموضوعية متنوعة، وهي:

فيلم "فائق حسن" عام ١٩٧٨، وهو يحمل في عنوانه اسم الفنان التشكيلي العراقي "فائق حسن"، وهو أحد رموز الفن التشكيلي في العراق والوطن العربي، وشهرته تمتد إلي أوروبا وأكثر دول العالم. والفيلم يتناول تجربته الشخصية ولوحاته وتوظيفه للحياة البغدادية وتطور تجربته، وهو إخراج صبيح عبد الكريم الزهيري..

والفيلم الثاني هو "شارع الرشيد"، وهو الفيلم الأول لمخرجه "معين الجابري"، وهو يخلق لدى المشاهد انطباعًا عن قدرات ممتازة لديه وجهد حقيقي بذله لكي يقدم "شارع الرشيد".. هذا الشارع العريق القديم، فقدم بغداد بصورة تتناسب ومكانتها في قلب الأحداث السياسية والثقافية التي كان محورها خلال سنوات القرن العشرين. كما يروي "شارع الرشيد" الأهمية التاريخية خلال الاحتلال الإنجليزي وجوانب أخرى عمرانية وبيئية..

أما الفيلم الثالث فهو "القباب المشعة"، وقد كتب له السيناريو، وقام بالتعليق عليه الأديب الراحل جبرا إبراهيم جبرا، وأخرجه ياسين البكري. و"القباب المشعة" تمثل القباب المقدسة في العراق، وهي بعض من أهم المباني الدينية في العالم الإسلامي. وقد استمد كبار الفنانين والصناع عبقريتهم الإبداعية عبر القرون من مدن بغداد وسامراء وكربلاء والنجف؛ لجعل هذه المباني دورًا تتوقد، فتجسد الجلال والإيماء بالسمو والتقوى، لما لها من مكانة في نفوس العرب والمسلمين في كل مكان، وأن تشعشع قبابها ومآذنها إزاء السماء الزرقاء، فإنها تذكرنا بأنها من أروع ما في العالم من هندسة معمارية يأتيها الزوار والحجاج من كل حدب وصوب كل سنة بآلاف مؤلفة.

والفيلم الرابع بعنوان "بنت الرافدين"، ويدور حول دور المرأة العاملة ولقاءات مع نساء يعملن في مهن مختلفة، وهو إنتاج عام ١٩٨٥، وإخراج خيرية المنصور..

أما الفيلم الخامس فهو "حلم إنسان عراقي"، وهو سيناريو الشاعر يوسف الصائغ، وتصوير حاتم حسين، وإنتاج دائرة السينما والمسرح عام ١٩٩٢. ويدور الفيلم في فضاء معرض الفنان الدكتور علاء بشير، وفيه تتمازج القصيدة واللوحة والموسيقى..

هذا بخصوص الأفلام التسجيلية، أما بخصوص الأفلام الروائية فقد تم عرض ٥ أفلام أيضًا وهي:

– "القادسية" إخراج صلاح أبو سيف، سيناريو وحوار محفوظ عبد الرحمن وصلاح أبو سيف، ومدير التصوير مصطفى إمام وعبد اللطيف صالح، وبطولة عزت العلايلي وسعاد حسني وشكري سالم وطعمة التميمي ومحمد حسن الجندي وليلى طاهر وهالة شوكت... وغيرهم.

– والفيلم الثاني هو "التجربة" سيناريو وإخراج فؤاد التهامي، قصة ضياء خضير، ومدير التصوير عبد اللطيف صالح.

– والفيلم الثالث هو "مطاوع وبهية" إخراج صاحب حداد قصة سعيد الكغراوي، وبطولة كرم مطاوع وسهير المرشدي وعبد الرحمن أبو زهرة ومحمد حسن الجندي وعبد الحفيظ التطاوي وسناء شافع وسعد أردش.

– والفيلم الرابع هو "القاهرة بغداد" سيناريو وإخراج أحمد بدرخان، قصة وحوار يوسف جوهر وحقي الشبلي، ومدير التصوير عبد الحليم نصر، ومونتاج ألبير نجيب، إنتاج مشترك بين اتحاد الفنانين في القاهرة وسينما الحمراء في بغداد، واشترك في بطولته حقي الشبلي ومديحة يسري وبشارة واكيم وعفيفة إسكندر.

– والفيلم الخامس والأخير في البانوراما كان "بابل حبيبتي" إخراج فيصل الياسري، بطولة يحيى الفخراني وهند كامل وأحمد عبد العزيز وسامي قفطان وسماح أنور والفنان العراقي يوسف العاني. الفيلم سيناريو وحوار فيصل الياسري ود. رفيق الصبان، ومدير التصوير طارق التلمساني، ومونتاج عادل منير، وإنتاج مشترك بين شركة بابل للإنتاج السينمائي (بغداد) وأفلام الجوهرة (القاهرة).

ثالثاً : السينما الأمريكية و صورة الإسلام والمسلمين (٤) :

أنتجت هوليود حوالي ٧٠٠ فيلم كلها تتعرض للعرب والمسلمين بالتشويه وانتقلت هذه الأفلام من التركيز على العربي المتخلف إلي التركيز على الإسلام، وأيضاً الموجة الجديدة من الأفلام في أميركا هي لا تتحدث عن المسلمين في الشرق الأوسط إنما تتحدث عن خطر المسلمين في أميركا .

فالتركيز على المسلمين بشكل خاص داخل أميركا يرجع الى أن نمو الإسلام في هذه البلاد سيصاحبه أثراً في النمو السياسي، ولهذا من المهم جداً عزل المسلمين وإقصاؤهم عن الرأي العام وعزلهم عن المشاركة السياسية والإعلامية وتشويه صورتهم أمام المجتمع الأميركي حتى لا يحتكوا بهم وبالتالي تأخير عملية فاعليتهم في الرأي العام الأميركي خاصة وأن هناك ٨ مليون مسلم في أميركا يشكلوا زبدة العالم الإسلامي الفكرية والمهنية ، لكن أراد البعض التركيز على تهميش الجالية المسلمة وتشويه صورتها. وحينما يكون ٨ مليون مسلم هؤلاء يستطيعون أن ينضموا إلي أحد الحزبين الكبيرين في أميركا، فتخطب الأحزاب ودهم ويكون لهم تأثير .

وقد عرضت دور السينما الأميركية فيلم "الحصار" الذي وصف بأنه أكبر تشويه قدمته هوليود حتى الآن لصورة المسلمين، حيث أبرزهم على أنهم إرهابيون ولصوص وقتلة، بل إنه زاد على ذلك فقدم المسلمين على أنهم لا يتورعون عن تعاطي المسكرات أو ارتكاب الفواحش وقتل الأطفال والنساء والضعفاء.

وهذه الصورة النمطية التي يرسخها فيلم "الحصار" كفيلة بتشويه صورة المسلمين وبث روح الكراهية والحقد ضدهم ليس في الولايات المتحدة وحدها وإنما في كل مكان يمكن أن يعرض فيه الفيلم.

وتدور أحداث فيلم "الحصار" في مدينة (بروكلين) في أحد أحياء نيويورك، وتتضمن سلسلة من التفجيرات التي يقوم بها إرهابيون مسلمون ضد الأبرياء من سكان المدينة وذلك رداً على قيام الولايات المتحدة باختطاف شيخهم من إحدى الدول العربية، فتبدأ سلسلة الأعمال الإرهابية بتفجير حافلة ركاب، ثم نسف مبنى فدرالي يلقى ٦.. شخص مصرعهم تحت أنقاض ذلك المبنى مما يجبر الجيش الفدرالي الأميركي على

التدخل وفرض الأحكام العرفية وإجراء حملة اعتقالات جماعية واسعة النطاق تشمل العرب والمسلمين الأميركيين .

والفيلم في مجمله يشكك في مصداقية الطلاب الذين يأتون للدراسة في أميركا، يشكك في طبيعة المهن التي يمتهنها المسلمون سواء مدرسين في الجامعات أو أصحاب أعمال في منطقة نيويورك.

ورسالة الفيلم الأخرى هي أيضاً أن المسلمين في أميركا قد يشكلون خطرا وتهديدا على أمن واقتصاد المجتمع الأميركي، هذه هي الصورة السلبية تربط الممارسات الإسلامية اليومية كالصلاة والأذان والوضوء..

فعندما يأتوا بمشهد الوضوء فأنت تتنبأ الآن كمشاهد من تعرضك للفيلم أن هناك عملاً إرهابياً سيتبع عملية الوضوء غسل الأيدي والوجه أو لباس الأبيض وكأنه لباس الشهادة كما يقولون في الفيلم، فمن خلال هذه الصورة النمطية التي يبرز بها هذا الفيلم المسلمين بهذه الصورة السلبية بأنهم إرهابيون يقومون بقتل النساء والأطفال وتفجير المباني والربط ما بين شعائر العبادات الأساسية مثل الوضوء والإقدام على الصلاة وهذه الأعمال الإرهابية.

فماذا يعنى هذا التصوير لشكل المسلمين أمام الأميركيين وأمام العالم من خلال هذا الفيلم؟

لا شك أن هذا التصوير تصوير ظالم لا يقوم على أساس علمي أو موضوعي أو حيدة، ولكنه يقوم على أساس انتقائي وأساس متعصب ومتحيز من أول الأمر ضد المسلمين، فمن يقول إن المسلمين جميعاً إرهابيون وأن المسلمين قتلة .هذا يعني ظلم لأمة كبرى بلغ عددها حوالي المليار وثلث المليار في العالم ولها ١٤ قرناً أو تزيد وكان لها حضارة شامخة جمعت بين العلم والإيمان، بين الرقي المادي والسمو الروحي، فاتهام أمة كبرى مثل الأمة الإسلامية أمة ذات رسالة وذات دعوة ولها كتاب خالد حفظه الله تعالي، فلا يزال مقروءاً ومحفوظاً ومسموعاً ومكتوباً لم ينتقص منه حرف .

هذه الأمة اتهامها اتهام بالإجمال وبالكلية بأنها أمة قاتلة، أمة مدمرة، أمة مخربة، هذا ليس من العلم وليس من الموضوعية في شيء، هناك أفراد من المسلمين لا

ينكر المسلمون أن هناك أفراداً يمكن أن يتهموا بالإرهاب ويمكن أن يوصفوا بالتخريب، ولكن هؤلاء نسبة قليلة جداً من هذه الأمة الكبرى وليس المسلمون وحدهم. وليس المسلمون وحدهم هم الذين عندهم هذا، الأمريكان أنفسهم عندهم هؤلاء، من الذين دمروا مبنى (أوكلاهوما سيتي)؟ اليابان عندهم هؤلاء جماعة الحقيقة السامية والغازات السامة في الأنفاق، الأيرلنديون وهم من عشرات السنين يقتلون ويدمرون ولازالت إسرائيل هي الإرهابي الأكبر في العالم إلي اليوم الذي لا يزال يدمر ويقتل ويسجن، والأرض يزيلها عن أصحابها ويضمها بالقوة والعنف إلي أملاكه، يعني المسلمون وحدهم هم من العالم كله هم الذين يوصفون بالإرهاب والعنف هذا اتهام ظالم والتعميم في هذه الأحكام ظلم .

ولا يجوز أن يقف المسلمون ساكتين أمام هذا العدوان الصارخ على أمتهم وعلى عقيدتهم وعلى حضارتهم وعلى شخصيتهم التاريخية وشخصيتهم الواقعية.

مراجع الفصـــــل الحادى عشر

١ – هاشم النحاس , الصراع العربي الإسرائيلي فى السينما التسجيلية العربية
جريدة الحياة , بتاريخ ٢٥ / ٧ / ٢٠٠٣
2http://www.islamonline.net/arabic/arts/2002/1./article.7.shtm
3http://www.islamonline.net/arabic/arts/2002/1./article.7.shtm

٤ – قناة الجزيرة برنامج الاتجاه المعاكس , صورة المسلمين في السينما الأميركية , أذيع يوم الأربعاء ٢الموافق ٩/١/٢٠٠٢م، الساعة: ٢١:٣٦(مكة المكرمة) .